ملامح تداولية الدرجة الأولى في سورة القلم

أمينة لعموري*

ملخص:

يهدف هذا العمل إلى بحث تجليات عناصر تداولية الدرجة الأولى في الخطاب القرآني. وسيعمد إلى مقاربة سورة القلم من خلال رصد العناصر الإشارية فيها(الشخصية منها والزمانية والمكانية وحتى الاجتماعية والخطابية)،ومحاولة الكشف عن مراجعها وما تعود عليه في الواقع من خلال الاعتماد على السياق.ويركّز العمل على مناقشة إشكالية مدى نجاعة المقاربة التداولية في قراءة النص القرآني قراءة كاشفة.

الكلمات المفاتيح: تداولية الدرجة الأولى –الإشاريات – السياق- الخطاب القرآني

Abstract :

The aim of this work is to search for the manifestation of the enunciation in the Qur'anic discourse. It will approach Surah "el Qalam" by monitoring the deixis (personal, spatial, temporal and even social and discursive). We will also try to reveal its references in reality, depending on the context. This research focuses on the problematic of the effectiveness of this pragmatic approach in the in-depth reading of the Qur'anic text.

Key words: enunciation, deixis , context, Qur'anic discourse.

احتلت التداولية حيزا واسعا من مجال الدراسات التي تعنى بالخطاب وتحاول مقاربته مقاربة لا تهمل أي جانب من جوانبه السياقية والنسقية معا. ولعل هذه المحاولة في الإمساك بكل حيثيات الخطاب هو ما جعل التداولية تستند على خلفيات متعدّدة ومختلفة وتناقش قضايا تبدو للوهلة الأولى متباعدة، لذلك نعتت في بداياتها بأنّها "سلة مهملات" باعتبارها حقلا يحكمه اللاتجانس في مرتكزاته ومبادئه وحتّى في قضاياه.

وفي سبيل لمّ شتات محتويات الحقل التداولي، اقترح هانسون سنة 1974 مشروعا يوحّد مختلف فروع التداولية. وقد قام فيه بتقسيم التداولية إلى ثلاث درجات متراتبة، تهتمّ كلّ درجة بجانب من جوانب استعمال اللغة و تمظهراته.وقد اعتمد هانسون في تقسيمه هذا على عنصر السياق لأن « أيّ تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني

* أستاذ مساعد – أ- ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج –البويرة-.

للسياق الذّي تؤول فيه الجملة».[1]

واختلاف درجات التداولية مردّه إلى اختلاف عناصر السياق المعتبرة في تأويل عناصر تداولية معيّنة، ف«كلّ درجة تعتمد على اعتبار مظهر من مظاهر السّياق ويمكن القول باغتناء السياق من درجة إلى أخرى وتعقده كذلك».[2]

1- درجات التداولية:

أ-تداولية الدرجة الأولى:تهتمّ هذه الدرجة بدراسة «الرموز الإشارية (أي التعابير المبهمة حتما)، ضمن ظروف استعمالها(أي سياق تلفظها)».[3]

ويقصد بالإشاريات (déictiques) « تلك الوحدات اللسانية الذي يتعلق اشتغالها في الإطار الدلالي المرجعي بالأخذ بعين الاعتبار بعض عناصر وضعية التخاطب».[4] أي هي تلك العناصر اللغوية التي لا يمكن أن يستغني عنها أي تواصل لغوي،لكنها تبقى أوعية فارغة ما لم يتم إكسابها دلالة مستقاة من سياقات استعمالها.ولا نقصد بذلك أنّ الدلالة المعجمية لهذه العناصر الإشارية تتغيّر بتغيّر السياق ولكن ما يتغيّر هو المرجع الذّي تحيل عليه. ولذلك«فمن أجل تحديد مرجع الأدوات إشارية وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المتلقي أن يدرك لحظة التكلم، فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغويةبناء على معرفتها».[5]

أمّا عن العناصر السياقية التي تتدخل لتحديد ما تحيل إليه عناصر الدرجة الأولى هي «الموجودات أو محددات الموجودات، ومن ثمّ فالسياق الوجودي والإحالي هو:المخاطبون، ومحدّدات الفضاء والزمن.»[6]

يشتمل سياق الدرجة الأولى - في الأصل- على العناصر الأولية والضرورية التي يتحقق بها التواصل والمتمثلة في ثلاثية(الأنا- الهنا- الآن)،أو ما أسماه أحمد المتوكل ب "المركز الإشاري" وقد حدّده في «متكلّم، مخاطب، مكان، زمان».[7] وهذا المفهوم الأخير يرتبط عنده"بإحالة الموضعة" وقصد بها «الإحالة التّي تحدّد موقع المحال عليه بالنّظر إلى "المركز

---

[1]-Catherine Kerbrat-Orrechionni, L'enonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin éditeur, Paris 1980.P185.

[2]- فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية،ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط 1986. ص38.

[3]-نفسه، ص38.

[4]-Catherine Kerbrat-Orrechionni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage,p 36.

[5]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطابمقاربة لغوية تداولية،ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004.ص83.

[6]- فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص38.

[7]- أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربيةدراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ط01، منشورات الإختلاف، الجزائر 2010.ص80.

الإشاري" الذي يشمل المتكلم والمخاطب ومكان التخاطب وزمانه».[1].

ويمكن أن تدرج الإشاريات ضمن مفهوم أعم هو الذاتية (subjectivité)، ويعتبر بنفنست المؤسس الأول لهذا المفهوم والذي يعني« قدرة المتكلّم على تقديم نفسه على أنّه الفاعل في خطابه».[2] ويكون هذا التقديم من خلال آثار لسانية يتركها المتكلم في خطابه تشير إليه كصاحب ذلك الخطاب.

ويرى بنفنست أن أهم مؤشر على الذاتية هو الضمائر (أو ما يسمّيه التداوليون بالإشاريات الشخصية) ذلك أنّ «الضمائر تشكل المرتكز في خلق الذاتية في اللغة، وتشترك هذه الضمائر مع أنواع أخرى من الإشاريات في الوضع نفسه.إنها أسماء الإشارة أو الحال أو النعت التّي تنظّم العلاقات المكانية والزمانية حول الفاعل(...) و لا يمكن فهم مدلول هذه الأدوات إلا من خلال معرفة سياق الكلام الذي استعملت فيه».[3]

ب- تداولية الدرجة الثانية: يختصّ هذا المستوى « بدراسة طريقة تعبير القضايا، في ارتباطها بالجماة المتلفظ بها، في الحالات الهامة، إذ على القضية المعبر عنها أن تتميّز عن الدلالة الحرفية للجملة».[4]

وللكشف عن الدلالة الضمنية يتمّ استدعاء عناصر سياق الدرجة الأولى إضافة إلى عناصر أخرى فيصبح سياق هذه الدرجة هو «سياق الإخبار والاعتقادات المتقاسمة، لا السياق الذهني، بل السياق المترجم إلى تحديدات العوالم الممكنة».[5]

ج- تداولية الدرجة الثالثة: وهي المعروفة ب "نظرية أفعال الكلام" لصاحبها الفيلسوف ج.ل. أوستين. تقوم هذه النظرية على فكرة أن العبارات اللغوية لا تصف الواقع إنما تسعى إلى تغييره، فتتحول اللغة من مجرّد أقوال إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية.

وسياق هذه الدرجة هو الأكثر غنى وتعقيدا، فهو يضمّ سياق الدرجتين السابقتين وعناصر تتعلق بالعوامل الفردية والاجتماعية للفواعل المتكلمة.[6]

2- سياق الدرجة الأولى في سورة القلم:

سبقت الإشارة إلى أن سياق هذه الدرجة يتمثل في (الأنا- الهنا- الآن)، ولهذا سنعمد إلى تحديد المشاركين في الخطاب(المتكلم- المخاطَب- المشارك الغائب) وكذلك الإطار الزماني والمكاني له. وبما أن الخطاب المدونة بعيد زمنيا فإن معرفة سياقه ستعتمد أساسا على ما ورد فيالتفاسير وأسباب النزول.

---

[1]- نفسه، ص 80.

[2]-Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale, T1,Cérès éditions, Tunis 1995. P258.

[3]-Ibid, P261.

[4]- فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 38.

[5]- نفسه، ص38.

[6]- نفسه، ص39.

نزلت سورة القلم على الرّسول ﷺبصفته المتلقّي الأوّل للوحي.كما أنّها نزلت لطمأنته أنّ ما يحدث معه ليس جنونا إنّما وحي يربطه بالله عزّ وجلّ في قوله تعالى:﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(02). كما فيها ثناء على الرّسول القدوة لاكتمال أخلاقه وسموّها في قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(04)

ولم يكن هذا الهدف الوحيد من نزول السورة، إنّما جاءت أيضا لتنذر المشركين الذين اتّهموا الرّسول الكريم بالجنون، وحاولوا مساومته ليرجع عن دعوته ويتخلّى عن رسالته. فوصفهم الله بأقبح الصّفات وضرب لهم مثل "أصحاب الجنّة" ليحذّرهم من عاقبة كفرهم وأنّ مالهم لن يغني عنهم شيئا.

ثمّ تنتهي السورة بحثّ النبيّ عليه الصلاة والسلام على الصّبر على ما ابتلاه من إعراض المشركين على إتباع طريقه، ضاربا له مثل سيّدنا يونس عليه السلام.

وممّا سبق من عرض لمضمون السورة ومناسبة نزولها يمكن أن نحدّد عناصر سياقها (في الدرجة الأولى) في ما يأتي:

أ- المشاركون:

المتكلم: القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيّه محمّد ﷺبواسطة الوحي جبريل عليه السلام. فالمتكلم هو الله عزّ وجل.

وعلى امتداد سور وآيات القرآن الكريم يمكن أن نجد متكلّمين غيره لكنّ خطابهم يمكن إدراجه ضمن ما يسمى بالخطاب المنقول لأنّ الله سبحانه وتعالى ينقل إلينا ما قالوه وما فعلوه في إطار القصة المثل.

المخاطَب: الخطاب القرآني موجّه بالدرجة الأولى إلى الرسول ﷺ،وفي بعض الأحيان يتعدّد دور الرّسول ﷺفي كونه المخاطَب من جهة والوسيط بين الله تعالى و مخاطَب آخر.إذ نزلت الآيات من قوله تعالى:﴿فَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾(10)إلى قوله تعالى:﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾(16) في شخص معيّن خاصم الرّسولﷺوحاربه وسعى في تأليب النّاس عليه.وقد جاء في التفاسير أنّالمقصود بالقول هو « الأخنس بن شَرِيق الثَّقَفِيّ حلِيف بني زُهْرة. وزعم ناس من بني زُهره أن الزنيم هو: الأسود بن عبد يغوث الزُّهريّ، وليس به».[1]وهذا معناه أن المرجع هو الأخنس بن شريق*.وفي رواية أخرى تؤكد ذلك:«قال: أخبرنا محمد بن عبيد قال: حدّثني زكريا بن أبي زائدة قال: سئل عامر عن الزّنيم، فال: هو الرّجل يكون له الزّنمة من الشّر يعرف بها، وهو

[1]- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج08، ط02، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية 1999.ص 193.

* هو أبي بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج.واسمه عُمَير بن أبي سلمة، وكان اسمه أُبيّا.فلمّا أشار على بني زهرة بن كلاب بالرجوع إلى مكّة حين توجّهوا بالنّفير إلى بدر ليمنعوا العير فقبلوا منه فرجعوا، فقيل: خَنِسَ بهم فسمّي الأخنس يومئذ.(...) وأسلم الأخنس بن شريق يوم فتح مكّة وشهد مه رسول اللهﷺحنينا. وتوفي في أول خلافة عمر بن الخطاب. ينظر:- محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق:علي محمد عمر، ج06، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة 2001.ص 77.

رجل من ثقيف يقال له الأخنس بن شريق».[1]

كما وجّه الخطاب في السورةلسادة قريش الذّين حاولوا مساومة الرسولﷺ ليتنازل عن رسالته مقابل الوجاهة والمال وليحافظوا على مكانتهم بين القبائل،فأشار إليهم الله تعالى في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (09/08). وقد عدّدهم سيّد قطب في الظلال«..عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أميّة.وأبو البختري واسمه العاص بن هشام والأسود بن المطلب بن أسد.وأبو جهل (واسمه عمرو بن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد بن المغيرة ونبيه ونبه ابنا الحجاج...»[2].

ولم يكتف المشركون بوصف الرّسول ﷺ بالجنون ومساومته على دعوته بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين «أرادوا أن يُصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. و قيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ثمّ يقول: يَا جاريةُ، خذي المكتل والدّرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر(...) فسأل الكفّار هذا الرّجل أن يصيب لهم النّبي ﷺ بالعين فأجابهم...فعصم الله نبيّه ونزلت الآية ».[3] وهو ما نزلت فيه الآية : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (51).

المشارك الغائب: وهو الذي يحضر في الخطاب من خلال أفكار أو مواقف وهو في السورة الكريمة حاضر من خلال التمثيل به وجعله عبرة لغيره من المُخاطَبين وتمثل في:

-*أصحاب الجنّة*: والذّي ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(17) وجاء في التفاسير أن قصة أصحاب الجنة قد تكون معروفة ومتداولة بين العرب لذلك مثّل الله لهم بها.أمّا أصحاب الجنّة فقد « - ذكر بعض السّلف أنّ هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن - قال سعيد بن جُبَيْرٍ: كانوا من قرية يقال لها ضَرَوَانُ على ستّة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة ».4

- *صاحب الحوت:* هو نبي الله يونس عليه السلام، وسمي بصاحب الحوت لأن الحوت ابتلعه عاقبة لعدم صبره على نكران أهله لنبوته وعدم امتثالهم لدعوته. وقد «بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل " نينوى" من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّوجلّ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم

---

[1]- محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، ص77.

[2]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج29، ط32، دار الشروق، بيروت 2003.ص 3659.

[3]- محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج 21، ط01، مؤسسة الرسالة، بيروت 2006. ص 184.

[4]- إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج08، ص197.

حلول العذاب بهم بعد ثلاث».[1]

ب-الإطار الزمكاني:

ويقصد به زمان ومكان نزول السورة، كما يمكن أن يكون زمن ومكان الأحداث التي تضمّنتها السورة.وهي الأزمنة والأمكنة التّي تحيل إليها الإشاريات المكانية والزمانية. وسورة القلم مكيّة نزلت في مكّة المكرّمة أمّا عن زمن نزولها يقول سيّد قطب:«لا يمكن تحديد التاريخ الذّي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها.كما أنّه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا، وأنّ سائرها نزل أخيرا- ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال.لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد».[2]

ومن خلال مضمون السورة يمكن تحديد الزمن العام لنزولها وهو بعد الجهر بالدعوة بفترة ليست لا بالوجيزة ولا بالطويلة ويمكن تأكيد ذلك من خلال ما قاله سيد قطب:«والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول، وأنّها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي ﷺ بالدعوة العامة.(...)وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم(...) وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة».[3]

3-عناصر تداولية الدرجة الأولى في سورة القلم:

أ- الإشاريات الشخصيّة: يرى محمود أحمد نحلة أنّ «أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص هي ضمائر الحاضر(...) وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذّي تستخدم فيه».[4] فلا يمكن أن نعرف على من يعود الضمير (أنا) إذا لم نعرف من هو صاحب الخطاب، وهل هو المسؤول عن التلفّظ أم أنّه مجرّد ناقل للملفوظات. وكذلك الحال بالنسبة لباقي الضمائر التّي ترد في الخطاب والتّي تحتاج إلى سياق تتضح من خلاله.

وهناك من يرى بأنّ استعمال الضّمير بدل الاسم الظاهر يحقّق ثلاثة فوائد هي[5]:

-الاختصار ولعلّها أبرز الفوائد، خاصّة حين ينوب الضّمير عن أكثر من دال.

- تفخيم ما يعود إليه الضّمير، فالإضمار ناتج عن شهرة المضمر.

- التّحقير.

---

[1]- إسماعيل بن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، ط05، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة 1997. ص 363.

[2]- سيّد قطب ، في ظلال القرآن، ص 3650.

[3]- نفسه، ص 3651.

[4]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2011. ص18.

[5]- ينظر: محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2009.ص 214-215.

وتتنوّع المراجع التّي تشير إليها الضمائرالواردة في سورة القلم.وقد جاءت على النحو التالي:

الضمائرالتّي تشيرإلى الله عزّوجلّ:

لم يشر الله تعالى في السورة إلى ذاته بضمير منفصل دالّ على المتكلّم، إنّما كل الضمائر التّي تشير إلى الذات الإلهية جاءت متّصلة بصيغة الجمع ممثّلة في الحرف "النون" في مثل قوله تعالى:﴿ إِذَاتُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَال أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(15)، وفي قوله أيضا: ﴿ إِنَّابَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِإِ ذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(17).

ويفسّر استعمال صيغة الجمع للمفرد في القرآن الكريم بغاية التعظيم، وفي هذا يقول ابن تيمية:« وكلّ صيغ الجمع التّي ذكر الله بها نفسه مبنيّة على ما يستحقّه من العظمة ولكثرة أسمائه وصفاته وكثرة جنوده وملائكته».[1]

و لم يشر إلى لفظ الجلالة بضمير متّصل مفرد إلاّ ثلاث مرّاتفي قوله:﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّب بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾(44) وفي قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(45)، وأيضا في قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ (45).

كما أشار الله تعالى في السورة إلى ذاته باستعمال ضمير الغائب المنفصل (هو) وكذلك المتّصل "الهاء"في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(07).لكنّ الملاحظ أن الضمير المنفصل "هو" فقد بعده الإشاري لعودته على عنصر حاضر في السياق اللغوي ذلك أنّ «ضمير الغائب يدخل في الإشاريات إذا كان حرّا أي لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عرف مرجعه من السياق اللغوي خرج من الإشاريات».[2] وهو ما حدث في الآية السابقة حيث عاد الضمير (هو) على (ربّك) المذكورة في الاية.

الضّمائر المشيرة إلى الرّسول صلى الله عليه وسلّم:

يحضر الرّسول عليه الصلاة والسلام في خطاب السورة المخاطَب ولهذا كانت الإشارة إليه بضمير المخاطَب المفرد المنفصل في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (02) وذلك لمرّة واحدة فقط ، وتمّت مخاطبته في مواضع أخرى إمّا اعتمادا على الضمير المتصل في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (04/03) ، أو اعتمادا على الضمير المستتر في الآية ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (08) أو في الآية: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ (40).

كما تمّت الإشارة إلى النبيّ الكريم في آخر السورة بالضمير المتصل الدّال على

---

[1]- تقي الدين بن تيمية، التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، تحقيق:محمد بن عودة السعوي، ط06، مكتبة العبيكان، الرياض 2006. ص 75.

[2]- محود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18.

الغائب "الهاء" في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾(51) ومردّ استعمال هذا الضّمير أنّ الخطاب منقول على لسان المشركين.

الضّمائر التّي تشير إلى المشركين:

تحدّث الله عزّ وجلّ في السورة الكريمة عن المشركين بصيغة الغائب في أغلب المواضع*، مثلا في قوله تعالى:﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾(05) وفي قوله أيضا:﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(09) وكذلك في الآية:﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(42)

واستعمال صيغة الغائب (ضمائر منفصلة أو متصلة أو حتى مستترة) جاءت في حديث الله تعالى مع النبي عليه الصلاة والسلام من باب طمأنته بأنّ كيد الكافرين في نحورهم وأنّهم لا يستطيعون شيئا وأن الله هو من سيتولّى أمرهم و يعاقبهم أشدّ العقاب في الدنيا والآخرة.

وأيضا تمّت الإشارة إلى المشركين بضمير المخاطَب* في الآية:﴿أَنِاغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنكُنتُمْ صَارِمِينَ﴾(22) وقد قصد هنا أصحاب الجنّة، وفي قوله تعالى:﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ،أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾(37/36) مخاطبا المشركين عامّة، من كان حاضرا منهم في زمن الخطاب ومن سيأتيبعدهم.

وهذا الاستعمال لصيغة المخاطَب جاء في سياق التهديد والوعيد والتحقير أيضا، وفيه تحدّ مباشر لهم بأنّ قدرتهم وأموالهم لن تكفيَهم من عقاب الله شيئا.

الضمائر التّي تشير إلى الأخنس بن شريق:

من خلال السورة، نجد أنّ الضمائر التّي تشير إلى الأخنس بن شريق قليلة وتنحصر في ضمير الغائب المتّصل في قوله تعالى:﴿إِذَاتُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾(15) وفي قوله:﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾(16).وفي ضمير الغائب المستتر في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(15).

أمّا باقي الإشارات فكانت عن طريق ما تسمّيه أوركيوني "عبارات ذات قيم نعتيّة وتقييميّة" وهي في السورة نعوت ذميمة وقبيحة الهدف من إيرادها تحقير صاحبها والانتقاص من قيمته،ومن خلالها تمكّن الصّحابة والتّابعون والمفسّرون معرفةالشّخص المقصود من الحديث.

الضّمائر التّي تشير إلى أصحاب الجنّة:

تمّت الإشارة إلى أصحاب الجنّة في السورة• بصيغة الغائب جمعا (هم) في قوله تعالى:﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(17)وفي قوله أيضا:﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾(25)

* وردت في الآيات: 45/44/43/41/40/17.
• وذلك في الايات: 33/30/28/26/23/21/19/18.

غير أنّ هذه الضمائر على تنوّعها- منفصلة ومتّصلة ومستترة- فقدت بعدها الإشاري لوجود مرجعها في السياق اللغوي (أصحاب الجنّة).

لكن في القصّة نفسها وفي السورة دائما يصبح (أصحاب الجنّة) متكلّمين•• في الآية:﴿ إِنَّا لَضَالُّونَ﴾(26) وفي الآية:﴿ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾(31)

ويشار إليهم في موقع آخر في السورة بصيغة المخاطَب باستعمال الضّمير(أنتم) متّصلا ومستترا حين يتولّى دور المتكلّم واحد من بينهم، وذلم ما جاء في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (28) فيتحوّل الخطاب في هذا المقام إلى تفاعل كلامي بين أصحاب الجنّة.

ويمكن القول أنّ الآيات التّي يكون المتكلّم فيها شخصا أو أشخاصا غير الذّات الإلهيّة غالبا ما تدخل في إطار الخطاب المنقول، مباشرا كان أو غير مباشر.

الضمائر التي تشير إلى يونس عليه السلام:

تمّت الإشارة إلى نبيّ الله يونس عليه السّلام –في السورة- بضمائر الغائب المفرد منفصلة ومتصلة ومستترة، في قوله جل وعلا:﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْنَادَىٰ وَهُو مَكْظُومٌ﴾(48).وهذه الضمائر كلّها لا تدخل ضمن الإشاريات لحضور مرجعها في السياق اللغوي، لكن تبقى العبارة النعتيّة "صاحب الحوت" بحاجة إلى سياق خارجي يبيّن معناها.

ويمكن للضمائر أن تدلّ على أكثر من الإشاريةّ الشخصيّة حين تحمل بعدا إشاريا اجتماعيّا. فالإشارة إلى المتكلّم بصيغة الجمع (نحن) ليس تأكيدا على عظمة الخالق سبحانه فقط وإنّما تدلّأيضاعلى المسافة الاجتماعيّة بين المتكلّم والمخاطَب. ف(نحن)تعني بعد العلاقة بين أطراف الخطاب، فلا يمكن للمخلوق أن يتساوى بالخالق ولا يمكن للمشرك أن يكون مقرّبا من الله سبحانه وتعالى أمّا حين يستعمل جلّ ثناؤه ضمير المتكلّم المفرد (أنا)- وحصل ذلك فقط حين مخاطَبته للرّسول ﷺ- فلبيان طبيعة العلاقة بين العبد المخلص وربّه، خاصّة أنّ الرّسل أقرب البشر إلى الخالق عزّ وجلّ اختارهم دون غيرهم لتبليغ رسالته.كما في هذا القرب نوع من التثبيت والدّعم والرّفع من شأن المخاطَب.

ب- الإشاريات الزمانيّة:ويقصد بها «عناصر إشاريّة تدلّ على زمان يحدّده السياق بالقياس إلى زمن التكلّم، فزمان التكلّم هو مركز الإشارة الزمانيّة، فإذا لم يعرف هذا الزّمان التبس الأمر على المتلقّي».[1]

ولعلّها أشدّ الإشاريات ارتباطا بالّسياق فلو غاب عنّا تحديد لحظة التكلّم سيكون مستحيلا تحديد مرجع الإشاريات الزمانيّة الواردة في الخطاب ولذلك« ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشاريّة الزمانيّة، وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة

•• الآيات: 32/29/27.

[1]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص19.

التلفّظ، فيتّخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤوّل مكوّنات التلفّظ اللغويّة بناء على معرفتها».[1] فعدم معرفتنا بلحظة التلفّظ سيجعل من الصّعب تحديد ما تشير إليه بعض العناصر الزمانيّة التي يحتويها الخطاب.

والإشاريات الزمانية لا تقتصر على ظروف الزّمان إنّما تظهر أيضا في صيغ الأفعال، فالزّمن الماضي يدلّ على حدث سابق للحظة التلفّظ والزمن الحاضر يدلّ على مجريات لحظة التلفّظ.« فالعناصر الإشاريّة قد تكون دالّة على الزمان الكوني الذّي يفترض سلفا تقسيمه إلى فصول،وسنوات وأشهر وأيام وساعات...وقد تكون على الزمن النحوي، وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني».[2] وقد يحدث تعارضا بين الزّمن الكوني المعبّر عنه والزّمن النّحوي المستعمل.

وبالنسبة لظروف الزمان الواردة في سورة القلم فقليلة، جاءت في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾(24)فكلمة اليوم لا يمكننا أن نحدّد مرجعها الإشاري ما لم نكن على علم بزمن الحدث أي الزمن الفعلي الذي حدثت فيه واقعة أصحاب الجنّة.إضافة إلى أنّ ظرف الزمان (اليوم) يحمل معنى الامتداد فليس المقصود لحظة من ذلك اليوم إنّما اليوم كلّه. وكذلك في الآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(42) فظرف الزمان (يوم) لا تتحدّد دلالته الإشاريّة إلاّ من خلال زمن الأفعال الواقعة بعده ، والتّي تدلّ على الاستقبال.وإن كان اليوم المقصود في الآية معروفا بأنّه اليوم الآخر الذّي يرث الله فيه الأرض وما عليها إلاّ أنّ ضبط موعده يبقى من الغيبيّات وهو الأمر ذاته في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(39).

فظروف الزّمان الواردة في السورة -على قلّتها-تشير إلى زمن لاحق لزمن التلفّظ لأن الله سبحانه وتعالى جعل من السورة إنذاراللمشركين فتوعّدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة وليطمئن رسوله بأنّه سينتقم له ممن آذاه.

وقد وردت في السورة الكريمة صيغ صرفية وتراكيب لغوية ذات دلالة زمنيّة مبهمة كلفظة "مصبحين" في قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(17) وفي قوله:﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾(21)، فالصيغة مشتقّةمن (أصبح) أي (وقت الصّباح) لكن عن أيّ صباح تحديدا فهذا ما لا يمكن تحديده من خلال السورة وحتّى من سياقها.

أمّا بالنسبة للزمن النحوي فتراوح بين الماضي الدّال على ما قبل زمن التلفظ، وقد ورد في قصة أصحاب الجنّة وقصة صاحب الحوت وكذلك في ذكره جلّ وعلا للمشركين وما دبّروه للنّيل من الرّسول الكريم. وبين صيغة المضارع الدّال على الحاضر أحيانا، خاصة في مواضع الوصف كما في قوله تعالى:﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾(23).كما استعمل للدلالة على

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص83.
[2]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص21.

المستقبل (أي مستقبل لحظة التلفظ بالسورة وكذلك المستقبل البعيد –الأخروي-) في قوله تعالى:﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(42) وهذا الاستعمال يتناسب تماما مع مضمون السورة وسبب نزولها، فالله يتوعّد الكافرين بالعذاب في الدنيا والآخرة ويعد المؤمنين بالفوز العظيم.

والملاحظ في سورة القلم أنّه لا تعارض بين الإشاريات الزمانيّة وما رافقها من زمن نحوي.ولعلّ قلّة الإشاريات الزمانية في هذه السورة سببهتركيز خطابها على الزمن البعدي المرتبط بالجزاء والعقاب يوم الحساب.

ج-الإشاريات المكانيّة:

يقصد بها «عناصر تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها على معرفة مكان المتكلّم وقت التكلّم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو وجهة»[1].

ولا تقتصر الإشاريات المكانيّة على ظرف المكان بل يمكن أن تضمّ كل العناصر التي تدلّ على المكان بالإضافة إلى أسماء الإشارة،لأنّ«أكثر الإشاريات المكانيّة وضوحا هي كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلّم»[2] فأسماء الإشارة إذا عرف ما تشير إليه يمكنها أيضا أن تحدّد المسافة بين مكان التلفّظ و المشار إليه.

تشير كتب التفسير إلى أنّ السورة مكيّة، فالوحي نزل بها على سيّدنا محمّد في مكّة.فتصبح مكّة هي مكان التلفّظ.لكنّ لا يمكننا أن نجعل منها مركزا تتحدّد من خلاله إشارية العناصر المكانيّةلأنّ هذه الأخيرة لا تتعلّق بمكان التلفّظ على وجه التحديد بقدر ما تتعلّق بالسياق الداخلي للسورة وبمضمونها، ولعلّ هذا ما يصنع خصوصيّة الخطاب القرآني.

وقد ورد في السورة استعمال اسم الإشارة "ذا" في قوله تعالى:﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾(14)، كما استعمل مقترنا بهاء التنبيه في قوله تعالى:﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾(44) وهي للدلالة على القريب. ففي الآية الأولى دلالة على أن المتحدّث عنه شخص منَّ الله عليه بسعة الرزق وكثرة المال، فقد كان قريبا من رحمته تعالى لكنّه في المقابل أنكر النّعم وكذّب بالحق.أمّا في الآية الثانية يعود اسم الإشارة على القرآن الكريم الذي كذّبه أهل قريش ولم يصدّقوا أنّه وحي يوحى من رب السماء.فالقرآن كلام الله ودلالة على ربوبيته ووحدانيته فتصديقه يقرّب إليه جلّ وعلا.

أمّا اسم الإشارة "ذلك" الدّال على البعيد فتكرّر استعماله ثلاث مرات. والبعد هنا ليس بعدا مكانيا إنّما معنويّا يقصد به بعد الكافرين عن الصواب وسبيل الحق، فيبعد مع ذلك تحقق مآربهم وأهدافهم المتمثّلة في ردّ الرسول عن رسالتهوإيقاف مسار الدعوة إلى الله عز وجل.

---

[1]-محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص22.

[2]- نفسه، ص22.

أمّا في قوله تعالى:﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(44)، ف"حيث" ظرف مكان استعمل في الآية الكريمة للدّلالة على أنّ الله قادر على أخذ الكفار أخذ عزيز مقتدر وأن العذاب سيأتيهم بغتة أينما كانوا. وتبقى اللفظة مبهمة حتى عند عودتنا إلى السياق لأنها استعملت لتشير إلى أمر غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

أمّا عن العناصر المكانيّة الواردة في السورة فيمكن حصرها في:

- الجنّة في قوله تعالى:﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾(17) والجنّة هنا دنيوية،أمّا عن أيّ جنّة تتحدّث السورة تحديدا فالأمر مبهم، ولا يتّضح إلا من خلال الرجوع إلى سياق الآية،فنجد أن المكان المقصود هو «البستان المشتمل على أنواع الخضار والفواكه».[1] وهذا البستان قد يكون في أيّ بقعة من بقاع الأرض ولكن تناقلت الروايات «أنّ هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن – قال سعيد بن جُبَيْرٍ: كانوا من قرية يقال لها ضَرَوَانُ على ستّة أميال من صنعاء. وقيل: كانوا من أهل الحبشة».[2] كما يروى أنّ الجنّة المقصودة في هذا المقام كانت معروفة وقصتها عند العرب في زمن الرسول ﷺ.فتحديدنا لموقع الجنّة على الواقع مرهون بمعرفتنا لما تواردته كتب التاريخ والتفسير من أخبار.

واللّفظة نفسها جاءت في قوله تعالى:﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (34) لكنّها لم تدل على المكان عينه، فإن كانت جنّة أصحاب الجنّة تحتاج التّحديد السياقي لفهم بعدها الإشاري فإنّ جنّات النعيم مكان ذو بعد معنوي أكثر من كونه مادّي.فجنّات النّعيم مكان لا يتحدّد بجغرافيا التلفظ وإنّما يرتبط بمفهوم الفوز الأبدي والنعيم الأزلي الذي وعد الله عباده الصالحين، وتحديد مرجعيته لا علاقة له بالسياق. كما أنّه استعمل في السورة بصيغة الجمع الدالة على اختلاف درجات الجنّة وكثرة نعمها.

وفي ختام هذه الدراسة توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1- تعتمد المقاربة التداولية لأي نوع من الخطاب بما فيه الخطاب القرآني اعتمادا كليا على السياق، فلا وجود للخطاب خارج السياق.

2- يلعب السياق دورا مركزيا في تحديد درجات التداولية، وتستدعي الدرجة الأولى العناصر السياقية الأساسية المتمثلة في ثلاثية (الأنا-الهنا-الآن).

3- ملامح تداولية الدرجة الأولى تجسّدها العناصر الإشارية على اختلافها. وقد تفاوت حضورها في سورة القلم، حيث هيمنت الإشاريات الشخصيّة (الضمائر) على الأنواع الأخرى. وأغلب الظنّ أن السبب وراء ذلك هو أنّ القرآن يوجّه رسالة عامّة من خلال نماذج خاصّة ولا

يحصرها في زمان ومكان معينين لأنّه خطاب صالح لكلّ زمان ومكان.

4- أغلب الإشاريات الشخصيّة الحاضرة في السورة هي ضمائر المخاطَب لأن

[1]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج08، ص 195-196.
[2]- نفسه ، ج08 ، ص197.

السورة نزلت بمناسبة حادثة معينة شارك فيها أشخاص معّينون تمّت الإشارة إليهم في الخطاب بضمائر متصلة ومنفصلة وحتى مستترة، وكانت الغاية منها تثبيت الرّسول عليه الصلاة والسلام وتوعّد المشركين.

5- حضور الإشاريات في السورة يرتبط ارتباطا وثيقا بمضمونها من جهة وبأفعال الكلام التي احتوتها من جهة أخرى، فتنوعت بين توعد المشركين بعذاب الدنيا والآخرة ووعد المؤمنين بالفوز العظيم وأيضا حثّ الرّسول على الصّبر والثبات وكلّ ذلك من خلال ضرب الأمثال.

6- بالنسبة للإشاريات الزمانيّة والمكانيّة فلم ترتبط بزمان ومكان التلفّظ بقدر ما ارتبطت بأزمنة وأمكنة الأحداث المتضمّنة في السورة، وهذا ما يصنع خصوصيّة الخطاب القرآني.

مصادرومراجع البحث:

- القرآن الكريم.

- أحمد المتوكّل، الخطاب وخصائص العربيّةدراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ط01، منشورات الإختلاف، الجزائر 2010.

-إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط02، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية 1999.

- ـــــــــ، قصص الأنبياء،تحقيق: عبد الحي الفرماوي، ط05، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة 1997.

-تقي الدين بن تيمية، التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، تحقيق:محمد بن عودة السعوي، ط06، مكتبة العبيكان، الرياض 2006.

- سيّد قطب ، في ظلال القرآن ، ط32، دار الشروق، بيروت 2003.

- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية،ط01، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004.

- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط 1986.

- محمد بن أبي بكر القرطبي،الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط01، مؤسسة الرسالة، بيروت 2006.

- محمد بن سعد الزهري، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق:علي محمد عمر، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة 2001.

- محمد عبد الباسط عيد، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2009.

- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط01، مكتبة الآداب، القاهرة 2011.

- Catherine Kerbrat-Orecchionni, L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Armand Colin éditeur, Paris 1980.

-Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale,T1,Cérès éditions, Tunis 1995. P258.